الفصل التاسع

عصر الأيوبيين

كان عصر الأيوبيين إيذاناً بظهور نوع من النفور بين سلاطين مصر من الأيوبيين الذين ينحدرون من أصل كردي وبين البدو العرب الذين اعتادوا على المعاملة المعتبرة والجيدة إبان العصر الفاطمي، ومن ثم واجه السلطان صلاح الدين الأيوبي عدة صعوبات من جراء وجود عربان البدو بأعداد هائلة وبصورة شبه مستقلة عن السلطة الحاكمة، وأحس من البداية أن هذه العناصر المقلقة ما هي إلا وباء ينبغي مكافحته، فاتهمهم بأنهم يعملون مع الكفار ضد الإسلام كما قال ابن واصل في كتابه"مفرج الكروب في أخبار بني أيوب"، وفي ذلك يقول ابن شداد: إن الفرنج كانوا يستخدمون البدو لاستطلاع تحركات جيش صلاح الدين، كما كانوا يزودونهم بالقمح، فعمل صلاح الدين في مرحلة أولى، على خفض عددهم في الجيش، وأصبح عددهم (١٣٠٠) بدلا من (٧٠٠٠)، وأحل الأكراد محلهم، وعندما ثار كنز الدولة في أسوان ضد صلاح الدين، وجد هذا الأخير فرصة سانحة للقضاء على نفوذهم في الصعيد، وتم له ذلك في سبتمبر (١١٧٤ م- صفر ٥٧٠ هـ).

وكان من خلف صلاح الدين من السلاطين الأيوبيين قد اتخذ موقفا أكثر تسامحا حيال عربان مصر، الذين اضطرتهم ظروف الحياة إلي الاقتراب من الفلاحين المصريين والتحالف معهم في مواجهة السلطات، فقد أظهر عثمان الذي خلف أباه صلاح الدين العزيز، نوعا من الرأفة حيال القبائل البدوية في الغربية، وأمر وزيره ابن بهرام بالعفو عنهم بعد أن قتلوا بعض الأمراء، وذلك درءا لحدوث أي اضطرابات جديدة في البلاد، بل واستخدم الملك الكامل (٦١٥هـ /٦٣٥ هـ ـ ١٢١٨هـ / ١٢٣٨ م) هؤلاء العربان لمحاربة الفرنج الذين كانوا قد استولوا على مدينة دمياط.

وفي عهد السلطان الملك الصالح أيوب (٦٣٧هـ/٦٤٧هـ - ١٢٤٠م/١٢٤٩م) وعندما هاجم ملك فرنسا لويس التاسع دمياط في سنة (٦٤٧هـ- ١٢٤٩م)، حاربه العربان بكل شجاعة، غير أنهم تراجعوا أمام زحف الصليبيين، وعندما علم السلطان بتقهقرهم، اشتاط غيظاً وأمر بشنق رؤسائهم، فقد كان هذا السلطان يحترم العربان ويقدرهم، وكان القرشيون على وجه الخصوص من ذوي الحظوة لدي الأيوبيين، وخاصة الجعافرة الذين كانوا على رأس قبائل البدو في صعيد مصر، وظلوا يتمتعون بهذه الحظوة في عصر المماليك، وإلى أن ثاروا عليهم في عام (٦٥١)هـ، ولكن المماليك تمكنوا من التغلب عليهم وقهرهم في تلك السنة التي شكلت نقطة تحول ملحوظة في تاريخ البدو في مصر، ولنا أن نذكر هنا أن الأيوبيين قد حاولوا الانتساب إلي العرب، سواء إلي بني مروان أو إلي بني هوازن أو إلي الأرز، رغبة منهم في كسب محبة وثقة عربان مصر وقبائلهم.